في الطريق الى السويس: خمسون عاما على العدوان (2)

اليمين الاسرائيلي افشل محاولات شاريت ونجحت عملية «سوزانا» بتخريب علاقة ناصر مع امريكا

رفض حلف بغداد وطالب بحلف عربي وناصر فشل باقناع العرب بالتركيز على اسرائيل وليس الشيوعية

سعيد ابو الريش*

تنشر «القدس العربي» بمناسبة مرور خمسين عاما على ازمة السويس مقتطفات من كتاب الباحث الفلسطيني سعيد ابو الريش «ناصر: آخر العرب» الذي صدر بالانكليزية (2004) وترجم للعربية، خاصة الفصول المتعلقة بجذور ازمة السويس واندلاعها لعدوان ثلاثي، وتداعياتها.

■ على الجانب الآخر، لم يكن لدى العرب ادنى فكرة عن المفاوضات الجارية، ولذلك لم تكن هناك اي صيحات ضد مصر بسبب قيامها بشق وحدة الصف العربي. وينبغي ان نتذكر هنا ان الدول العربية عادة ما تتبع مصر، ولكن الشعب المصري لم يكن لديه ميل الى مشايعة الحكومات العربية الاخرى. ومع ذلك، فقد كان امرا مستحقا للتقدير كسب مشاركة شخص في مثل مكانة وقامة عكاشة في تلك المفاوضات، فاما ان يكون عبد الناصر قد استشار رفاقه، وحصل على ثقة عدد منهم، او انه اخذ موافقتهم الاكيدة على سياسة السلام التي اقترحها. وبما ان مذكرات رفاقه لم تشر الى هذا الموضوع، فان الخيار الاخير يبدو اكثر احتمالا. وقد اوضحت سياسات عبد الناصر بجلاء ان فلسطين لم تحتل موقعا رئيسيا لديه الا مؤخرا.

ووفقا لمعظم التقديرات عن فضيحة لافون، استخدم قائد الصقور الاسرائيليين، ديفيد بن غوريون وتابعه وزير الدفاع بنحاس لافون للتقليل من شأن حكومتي عبد الناصر وشاريت. ومع مرور الوقت، بدا وكأن لافون قد قام بتنشيط خلية مخابراتية في مصر دون الرجوع الى رئيس الوزراء شاريت. ونظرا الى ان المخابرات العسكرية الاسرائيلية «آمان» هي المسؤولة عن العمليات الخاصة، لذا فقد كانت الخلية التي تم تنشيطها، وهي الوحدة 131، تتبع المخابرات العسكرية وليس الموساد، اشهر اجهزة المخابرات، بل اكثرها مهنية ايضا. وقد كان بعض افراد الخلية من «النائمين» المتخفين داخل مصر منذ عام 1951، بينما وصل الآخرون الذين تم ارسالهم للحاق بهم قبل وقت قصير من عملية «سوزانا»، وهي الشفرة المخابراتية للعملية التي كانوا بصدد البدء بها. وباشرت المجموعة العمل في ربيع عام 1954. وبدأت عملية سوزانا في مطلع تموز (يوليو)، في الوقت الذي كانت فيه المفاوضات الفرنسية ـ المصرية الخاصة باستبدال معاهدة 1936 باتفاقية تدعو الى جلاء القوات من كامل منطقة قناة السويس على وشك النجاح. وكان هناك تعاون بين امريكا ومصر في مجموعة من البرامج الامنية، وكانوا بصدد مناقشة التوصل الى اتفاقية لتبادل المعلومات المخابراتية، ومناقشة ميثاق دفاع اقليمي. وكانت الولايات المتحدة تسعى لدفع اسرائيل والعرب للموافقة على مشروع للمشاركة في مياه نهر الاردن، في الوقت الذي كانت تجري فيه الاتصالات بين عبد الناصر وشاريت. وعلى الرغم من ان تلك الاتصالات لم تكن بعد قد حققت اي تقدم ملحوظ، فانها كانت واعدة، نظرا الى رغبة الطرفين في الاستمرار في الاجتماعات واستكشاف فرص السلام. والواقع ان عبد الناصر قد عبر عن رغبته في رفع مستوى الاتصالات، الامر الذي وافق عليه شاريت، ولكن لم يتمخض ذلك عن اي شيء.

وفي هذه الايام، فان معظم الكتاب والمحللين يشيرون الى السلوك الاخرق وغير المتقن للخلية، في تدميرهم لقاعات السينما والمكتبات الامريكية ومكاتب البريد، ومخططاتهم لفعل الامر نفسه مع المؤسسات الغربية. ولكن، وبسبب افراهام سيدنبيرغ والياس بول فرانك، تم القاء القبض على كافة الاسرائيليين الذين شاركوا في عملية سوزانا، واعترفوا تحت تأثير التعذيب. وقد انتحر احدهم وشنق اثنان، وتم تبادل الاخرين مقابل آلاف المصريين الذين تم القبض عليهم عقب حرب السويس عام 1956. وبالحكم عليها من منطلقات الحكم نفسها على جهاز «آمان» (الوحدة 131) فقد كانت «سوزانا» عملية فاشلة.

وبالنسبة الى العالم الخارجي، كانت مصر تبدو كبلد غير مستقر مناهض للغرب، ومكان غير جدير بالزيارة او الاستثمار او التعاون معه، وكانت كذلك المكان الذي يقصده المطلوبون من العدالة. ووفقا للعميد عبد الفتاح رياض، المسؤول حينها عن الجانب الشرعي من التحقيقات، فقد قام احد العملاء الاسرائيليين، ويدعي قليب ناثونسون، باشعال النار في نفسه امام سينما ريفولي في الاسكندرية.

عملية سوزانا

وعندما تم القاء القبض عليه والتحقيق معه، تبين انه كان يحمل بيده حافظة نظارة فيها منديل ورقي ناعم للتنظيف كتب عليه اسماء وعناوين كامل زملائه. وقد اعترف لاحقا، تحت تأثير التعذيب، بالمزيد من المعلومات التي ادت بدورها الى اكتشاف فيلم صغير وحبر سري واجهزة بث اذاعي. اما بقية الاثني عشر عضوا الاخرين في الخلية، باستثناء فرانك، فهم اما تم الدفع بهم الى مركز اعتقال معين منذ البداية، او تم استخدامهم عقب اعتقالهم بواسطة احدهم هناك في القدس. لم تكن هناك اجابة عن سؤال: لماذا تم بهذه البساطة اكتشاف حافظة النظارة، وهي تحتوي على منديل ورقي للتنظيف يحتوي قائمة تحمل اسماء رجال المخابرات، ويحملها شخص يشعل النار في نفسه بطريق المصادفة؟

ان اسرائيل معروفة تاريخيا برغبتها دائما في الحفاظ على ارواح عملائها.

ولذلك يصعب تصديق ان هناك عملية للمخابرات الاسرائيلية تهدف الى التضحية بعملاء. ومع ذلك، تجدر ملاحظة ان «سوزانا» لم تكن عملية مخابراتية عادية.

وعلاوة على امور اخرى، كانت هناك عجلة في الامر برمته. وتشير الادلة المتوفرة الى تورط لافون، ولكن ليس بالضرورة في دور الشخصية القائدة في المؤامرة. ومن بين اخرين، اتهم موشي دايان، العسكري الاسرائيلي الشهير، واحد مدبري العملية لافون بتضليل شاريت. ولا نعلم حتى اليوم ما اذا كان لافون قد اعطى اذنا تفصيليا بالعملية، او انه اصدر اذنا توجيهيا عاما، وترك باقي الامور لاصحاب الاختصاص. كما لا نعلم ايضا من هو الشخص الذي اتخذ القرار باغراق سفينة المفاوضات التي كانت جارية حينها بين اسرائيل ومصر بهدف التوصل الى السلام.

وتسببت الطبيعة غير المكتملة للعملية، والغموض الذي اكتنف المحكمة العليا في عام 1960 باخلاء طرف لافون وعدم تحميله اي مسؤولية تجاه ما حصل في مصر في صعوبة التوصل الى نتيجة محددة.

ويرجع الفضل في المبادرة الى القيام بعملية «سوزانا» الى صالح شخص ما كان غاضبا على الطريقة الاسرائيلية الكلاسيكية في اتخاذ القرارات الاستراتيجية تجاه تغيير الحكومات، وهو شخص ما قادر على ارسال عملاء ليلقوا حتفهم، لتشكيك عبد الناصر في مدى صدق شاريت، ولانهاء المفاوضات السرية، وانهاء التعاون المصري ـ الامريكي الامني والمخابراتي. وقد تمكن عبد الناصر بعقليته المتشككة من ربط الافعال التخريبية الغامضة باسرائيل، ولكن القاء القبض عى الجواسيس الاسرائيليين كان يعني انه يجب عليه ان يتصرف، وان يعمل على توضيح لعبة المناورات بين مصر واسرائيل. ويعني هذا ان هناك ضغوطا على عبد الناصر للكشف عن تلك المفاوضات السرية التي كانت قائمة في وقت انتهت فيه كافة فرصها للنجاح، وان الكشف عن ذلك سيؤدي بدوره الى اضعاف موقفه الداخلي في مصر وبقية العالم العربي. وليس من المستغرب ان عبد الناصر نفسه لم يحد مطلقا عن التفكير بان الهدف من وراء فضيحة لافون كان ارغامه على التنحي عن منصبه.

وبالتأكيد، فان قائمة الاهداف الضخمة والتراخي غير المبرر من جانب العملاء الاسرائيليين جعلا القاء القبض على احدهم امرا ممكنا وسهلا. كما ان قائمة الاهداف، وحقيقة ان المشاركين في «سوزانا» قد علموا بعضهم من بعض، كان يجب ان تكونا معروفتين لاي شخص متحكم في قيادة العملية. واذا لم يكن الامر كذلك، فان القضية تصبح وكأنها توقع بالعملاء لكي يتعثروا في خطاهم دون موجه، وذلك ايضا يمكن ان يكون من تخطيط الايدي المحرضة هناك في القدس.

ولذلك بدا طلب الافراج عن اولئك العملاء من قبل شاريت وكأنه دفاع استغاثة شخصي لانقاذ حياة اشخاص يعلم جيدا انهم عملوا عن قصد لتدميره سياسيا. والامر الآخر الواضح هو ان حكومة شاريت بشكل جماعي لم تكن مسؤولة عن عملية «سوزانا» وان المسؤولية تقع على شخص، اما انه احد اعضاء الحكومة، كان يعمل لحسابها، او كان يعمل لحسابه الخاص، او شخص اخر من خارج الحكومة يتمتع بالاهمية الكافية للتغلب على الحواجز القانونية كافة التي تقف في طريقه. وكان لا بد من ان يكون شخصا قادرا على جعل كامل جهاز المخابرات يصغي الى ما يقوله.

ورأى عبد الناصر بعيني الغاضب ما رغب في رؤيته: مؤامرة. وبالضرورة، فان ما رآه عبد الناصر كان هو المهم، بغض النظر عما اذا كان حقيقة ام لا، وبغض النظر ما اذا كانت محاولة للتقليل من شأنه لصالح شخص آخر ام لا. وحتى اذا لم يكن شاريت نفسه متورطا، فان عبد الناصر لا يستطيع الاستمرار في التفاوض مع بلد منقسم حول التعامل معه. وقد ادت الاجراءات التي امر بها الى محاكمة الجواسيس الاسرائيليين الذين تم القبض عليهم، لكنه اوقف عمل المحكمة قبل وقت قصير من اكتشاف السبب وراء عملية «سوزانا» التي استهدفت مفاوضات السلام السرية. ومن جهة اخرى، فان عبد الناصر المحبط، والذي كان يشعر بخيبة امل من رفض امريكا تزويده بالسلاح، والمشكك في سياستها تجاه مصر الى الدرجة التي جعلته يصرح للسفير الامريكي هنري بايرود بانه ربما يفكر في شراء اسلحة من الاتحاد السوفييتي.

عبد الناصر لم يبلغ الشعب المصري

ولم يبلغ عبد الناصر الشعب المصري بانه يتفاوض مع اسرائيل بشأن السلام، وانه يتبادل المعلومات المخابراتية والامنية مع حكومة الولايات المتحدة، لانه لم يكن لديه ما يعرضه عليهم من انجازات في الحالتين. وكان العالم يبدو، وفقا لالة عبد الناصر الدعائية الاعلامية، مقسما الى ابيض واسود، وظل يحدث شعبه، حتى اثناء المفاوضات السرية، بان الاسرائيليين خائنون بطبعهم، مستندا في ذلك الى غياب النتائج الملموسة من المفاوضات. وكان اسهل عليه اتباع مثل ذلك النهج. وقد وقع في فخ مبدأ تاريخي تقع فيه معظم الانظمة غير الديمقراطية، وهو الحاجة الى ان يقتنعوا بالحقائق البسيطة، وكان وجود المخربين الاسرائيليين في مصر الذين تم القبض عليهم، ووعد بمعاقبتهم، قد جعله يرفض المناشدة بالرأفة بمنفذي عملية «سوزانا» وكانت المناشدات المذكورة قد تقدم بها علنيا عدد كبير من المؤسسات اليهودية والساسة اليهود، وسريا من قبل كيم روزفلت رجل الاستخبارات الامريكية، ضمن اخرين ولكن تلك المناشدات قد صدرت من اشخاص لا يقدرون تماما ماذا كانت تعني خسارة الكرامة بالنسبة الى عبد الناصر، او يعتبرون ان الحل بدا له بتلك الطريقة. وفي كانون الثاني (يناير) عام 1955، نفذ عبد الناصر حكم الاعدام في حق عضوي عملية «سوزانا» اللذين حكم عليهما بالاعدام. واوقف عبد الناصر جميع الاجتماعات مع ممثلي شاريت، وذلك اما لانه اعتقد بان شاريت قد تآمر عليه، او لانه ادرك بان شاريت لا يستطيع السيطرة على ادارات المخابرات التابعة للحكومة الاسرائيلية. ولم يعارض شاريت ذلك، واستبعد من منصبه بعد وقت قصير من ذلك. وبالتالي انتهت اولى محاولات السلام الاسرائيلية في خضم من الشكوك.

في اسرائيل نفسها، جعلت الفضيحة شاريت يبدو ضعيفا وغير قادر على تحمل اعباء منصب رئيس الوزراء. ولم يكتف فقط بالامر بالتحقيق في ما بدأت الصحافة تطلق عليه «فضيحة لافون»، بل سعى لتعويض الثقة التي فقدها الناس فيه، وذلك بارسال سفينة اسرائيلية هي «بات غاليم» عبر قناة السويس. وتم اعتقال طاقم السفينة، ومنعت السفينة من العبور، لكن عبد الناصر اعاد الطاقم الى اسرائيل بعد ثلاثة اشهر، في الوقت نفسه الذي تم فيه تنفيذ عمليات الاعدام تقريبا. وعلى الرغم من تخلي عبد الناصر عن محاولة العمل على جعل الحكومة الاسرائيلية شريكا في عملية السلام، الا انه ظل يسعى للحفاظ على صورة مرضية له في امريكا والغرب. وفي الحقيقة، فان سياسة نظام عبد الناصر الاعلامية ضد اسرائيل اصبحت معتدلة، وكان التوجيه بذلك قد جاء منه شخصيا. ولكن في اسرائيل، اخذ الناس يسألون انفسهم كيف لكارثة، مثل فضيحة لافون، ان تحدث في ظل الديمقراطية؟ ومهما كانت الاجابات، مع ان معظمها كان غير مقبول، فان الفضيحة عززت موقف المجموعات المناهضة للسلام في اسرائيل.

وبسبب اغلاق قناة السويس ومضيق العقبة والقاء بيانات مساندة لسورية والاردن ضد خطط التوسع الاسرائيلي، اصبح عبد الناصر تنينا. وكان مجرد التفكير بان مواطنين اسرائيليين قد ذهبوا الى المشنقة، بغض النظر عن السبب وراء ذلك، محرضا مؤكدا لتوليد مشاعر عداء قوية مناوئة لعبد الناصر.

وقد توجب على لافون، بعد التصريح بجهله بفضيحة «سوزانا»، ولكنه لم يكن بمقدوره اعفاء نفسه من المسؤولية، الاستقالة من منصبه. وعقب اعلان استقالته، اتهم رئيس جهاز «امان» بنيامين غليبي بالسعي للتقليل من شأنه. وكان آخر ما اتخذه توجيه اصابع الاتهام الى بن غوريون. واتفق معه كثيرون في اسرائيل، لكن القليل منهم كانوا مستعدين للذهاب الى اكثر من ذلك، والكشف عن الوجود الشرير في اسرائيل لأناس كانوا فوق القانون، حتى وان كانوا من الآباء المؤسسين للبلد. واسدل الستار على فضيحة لافون في شباط (فبراير) عام 1955 بعد يومين من تنفيذ حكم الاعدام في اثنين من اعضاء حلقة «سوزانا» في مصر. اما العضو الثالث، ماكس بينيت، فكان قد انتحر من قبل. وكانت هناك صرخة احتجاج عالمية تجاه الاعدامات. وقد انضم الى المحتجين عضو البرلمان الانكليزي اليهودي موريس اورباخ، وايضا قادة اليهود الامريكيين الذين حاولوا التوسط لدى عبد الناصر قبل ذلك، لكن عبد الناصر لم يلق بالا الى ذلك. لقد كان يعمل على رأب الصدع الحقيقي والمتعمد الذي تعرض له في كرامته. والغريب في الأمر انه تم استبدال لافون كوزير للدفاع برئيس الوزراء السابق ديفيد بن غوريون الذي كان كثيرون يعتبرونه الاب الروحي لفضيحة «سوزانا». وبافتراض ان بن غوريون قد تمت مساعدته باستمرار بشخصية اسطورية اسرائيلية اخرى هو الجنرال موشي دايان، وتم مرة اخرى منحه رتبة رئيس الاركان. ونظرا الى منزلة بن غوريون الرفيعة كأحد الاباء المؤسسين لاسرائيل وسمعته التي كانت في قمتها، فقد رأى ان لا حاجة به لاستشارة شاريت في اي امر من الأمور. وعلى الاكثر، بعد اسبوعين من تاريخ توليه لمهام منصبه وفي 28 شباط (فبراير) 1955، ومن دون الاحتكام في ذلك الى العالم او استشارة شاريت رد على الاعدامات باصدار اوامره بالهجوم على مخفر عسكري مصري داخل شريط غزة.

عملية «بلاك ارو»

وهكذا حدثت عملية «بلاك ارو»، او السهم الاسود، وهو الاسم الذي اطلق عليها تحت قيادة اريبل شارون، وكالعادة، وعندما تكون القيادة في ايدي شارون تكون الاصابات عالية. وخلف الاسرائيليون وراءهم ستة وخمسين قتيلا وعشرات الجرحى من الجنود المصريين، ولم تكن العملية توبيخا لعبد الناصر، بل كانت اهانة بالغة له. وعلى الرغم من فداحة الحدث، الا انه كان على عبد الناصر ان يبتلع تلك المهانة. ومرة اخرى ابلغ الامريكيين بحاجته الى السلاح، ومرة اخرى ايضا اصاخ الامريكيون اذانهم، ولم يردوا على طلبه. ولانه لم يكن قادرا على مواجهة اسرائيل في ميدان المعركة، فانه لجأ الى تغيير سياسته، ودعم الهجمات التي يشنها الفدائيون. لقد كان ذلك فعل رجل يائس.

كان ذلك بالنسبة الى عبد الناصر بمثابة نقطة تحول. ولقد ضمن اطلاق العنان للفدائيين ردة الفعل الاسرائيلية، ووضع عبد الناصر في خط الصدام مع اسرائيل. واقتناعا منه بأن اسرائيل لم تترك له اي مجال للمناورة، فانه اصبح دائم الشكوى من ان اسرائيل لا تبحث عن السلام مع جيرانها. وقد وضعت اسرائيل مع شاريت او من دونه حدا لمخططاته من اجل تحقيق السلام. لقد خانته اسرائيل.

ولم يستطع تقرير الكنيست النهائي لعام 1960 حول فضيحة لافون عمل اي شيء لتغيير رأيه. فبالنسبة الى عبد الناصر، فان الافتراضات القائلة بان بعض الاسرائيليين الصقور كانوا يعملون من تلقاء انفسهم تعني بان اسرائيل لا تعتبر شريك سلام يعتمد عليه. واذا كان في قدرة بعض الاطراف غير المعروفة ان تقضي على عملية السلام، فليس هناك من وسيلة سلمية للخروج من هذا الصراع. وقد اكدت عودة بن غوريون في عام 1955 كوزير للدفاع مخاوفه الكبيرة. ومن ضمن اشياء اخرى، علم عبد الناصر بان بن غوريون اصبح اكثر قربا من موشي دايان. وقد عنى ذلك ان القوات الاسرائيلية قد تعود مرة اخرى الى الغارات لالغاء اي اتفاقية سياسية لا ترغب فيها. ان ميول دايان لردود الفعل الحادة هي بالدقة ما نشهده اليوم في شارون.

وفي اسرائيل فان زوال حكومة شاريت الرجل الوحيد الذي تابع البحث عن السلام بالتزام ساذج محبب كان امرا متوقعا. وكان بامكان الامريكيين الذين لعبوا دورا في بدء اتصالات السلام الاسرائيلية ـ المصرية ان يفعلوا شيئا بشأن تهدئة روع عبد الناصر، وايقاف الاسرائيليين عن اختزاله الى درجة الحياة من دون كرامة. لكنهم لم يفعلوا شيئا، فقد ظل مستوى الشد يتصاعد باستمرار، واستمر الاسرائيليون في تجريعه المهانة تلو الاخرى. وفي كانون الثاني (يناير) 1955، رفض عرض عبد الناصر لجعل الجبهة مع اسرائيل منطقة مجردة من السلاح، وفي تموز (يوليو)، هدد كل من شاريت وبن غوريون معا بالحرب لفتح خليج العقبة امام السفن الاسرائيلية. وعقب ذلك بوقت قصير، كسب اليمين الاسرائيلي ارضية في الانتخابات العامة، وفي اب (اغسطس) اعلنت اسرائيل شراءها لمقاتلات ميستير. ثم بعد فترة زمنية قصيرة، نفذت احدى الوحدات الاسرائيلية العسكرية هجوما عنيفا على موقع للجيش المصري في قطاع غزة. وتصرف بن غوريون كحكومة داخل حكومة، او حتى اعلن منها، ولكن بالنسبة الى عبد الناصر كان شاريت ما يزال هو رئيس الوزراء. وبعد ان اقر بعدم قدرته على مجابهة الهجمات الاسرائيلية المتتالية واحدة بواحدة، قام عبد الناصر في العاشر من ايلول (سبتمبر)، ومن طرف واحد، باخلاء القوات العسكرية من على الجانب المصري من الحدود المصرية ـ الاسرائيلية. وفي ما يشبه الرد على ذلك من الجانب الاسرائيلي، اصدر بن غوريون في الثاني والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) امرا بعودة موشي دايان من باريس للتخطيط لحرب سيناء. ان عدم استطاعة عبد الناصر الرد على هذه الخطوة بطريقة مقبولة ومرضية للشعب هي خسارة مطلقة للكرامة.

فشل شاريت

لم يحاول اي شخص كان، خارج او داخل اسرائيل، انقاذ طموحات شاريت في السلام. فالذين في الخارج لم يعرفوا ماذا يفعلون، ذلك ان اليوم الذي يمكنهم فيه التدخل في الشؤون الداخلية لاسرائيل لم يحن بعد. اما في الداخل، فان شاريت لم يكن يتمتع بالولاء داخل مؤسسة الكنيست، وكان متحضرا وراقي السلوك الى الحد الذي لا يسمح له بتوجيه اوامره الى اتباعه في الشارع العام. وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) 1955، عقب خمسة عشر شهرا فقط من توليه مهام منصبه، وبعد اشهر من مراقبة بن غوريون، وهو يخلق وضعا اشبه بحالة الحرب على طول الحدود الاسرائيلية ـ المصرية دون الرجوع اليه، وافق شاريت، وهو في حالته تلك من الانكسار الكامل، على التنحي عن منصب رئاسة الوزراء، والعودة الى العمل كوزير غير سياسي للخارجية. وفي الحقيقة، فان بن غوريون لم يكن يرغب في وجوده كليا داخل الحكومة وتم بالتالي طرده من مراسم استقباله في حزيران (يونيو) من عام 1956، حيث لم يتبادل مرة اخرى اي احاديث منذ ذلك اليوم مع بن غوريون. وفي اليوم الذي شهد عودة بن غوريون الى السلطة، اغارت القوات الاسرائيلية على جبل الشبعة، واحكمت قبضتها على مثلث العوجة في سيناء الذي يمثل بوابة الاقتحام الى شبه الجزيرة.

وفي مصر، تجاوز عبد الناصر القنوات العادية، واصبح البكباشي صلاح الدسوقي الذي كان ملحقا بوزير الداخلية زكريا محيي الدين يعمل تحت اشرافه مباشرة في ما يتعلق بكافة المسائل الخاصة بمجريات التحقيق في فضيحة لافون. وما ان تكشفت الحقائق امام عبد الناصر، حتى حالت شخصيته المتشككة دون تصديق ان شاريت لم يكن يعلم شيئا عما حدث. وبدا له شاريت متناقضا، وانه وقد وجه له لطمة قوية في كرامته. لكن الامر الذي اقلق عبد الناصر بالفعل كان تأثير قضية «سوزانا ـ لافون» في علاقاته بأمريكا. وقد تم الغاء الرحلة التي كانت مجموعة من ضباط المخابرات المصرية قد خططت للقيام بها الى امريكا لبدء المفاوضات الخاصة بالتعاون الامني المخابراتي المصري ـ الامريكي، بناء على طلب امريكي. واضافة الى ذلك، كانت جهود المبعوث الخاص للرئيس ايزنهاور لدى الشرق الاوسط الذي كان يعمل للوصول الى معادلة اقليمية لهيئة وادي نهر تنيسي للخزن والري وانتاج الطاقة الكهربائية تتجه نحو الانهيار، على الرغم من مساندة كل من الرئيس عبد الناصر وشاريت للخطة الامريكية بالمشاركة في مياه نهر الاردن. وشملت حدة التوتر مع اسرائيل كلا من الاردن وسورية اللذين وجدا انه من الصعب القبول باسرائيل كشريك دائم في اي امر من الامور في الشرق الاوسط. كما ان الاسرائيليين كانوا يرغبون ايضا في الحصول على حصة من المياه اكبر من تلك التي كانت الدول العربية راغبة في منحها اياها. وتم تجميد الامرين المعلقين بين عبد الناصر والولايات المتحدة، وهما طلب مصر بالتزود بالاسلحة وتمويل خزان السد العالي.

وكان قرار الامريكيين بوقف التعاون في الشؤون الامنية والمخابراتية، وانهاء المفاوضات الخاصة بمياه نهر الاردن قد عنى لعبد الناصر انهم كانوا فقط في انتظار مجرد سبب لانهاء كلا الامرين، حيث انهم كانوا متعاونين مع الاسرائيليين طوال تلك المدة. وفي تقديره ان المؤامرة ذهبت الى ابعد من الحكومة الاسرائيلية لتشمل الامريكيين ايضا. اذا، فقد نجحت عملية «سوزانا» بتحقيق اهدافها بجر العلاقات بين عبد الناصر والولايات المتحدة الامريكية الى الهاوية. وعلاوة على الاعتقاد بعدم رغبة اسرائيل في السلام، اصبح عبد الناصر كثير الشكوك حول مشاريع التعاون العديدة مع الولايات المتحدة التي تم اقتراحها له بواسطة وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية في القاهرة. وقد رفض عبد الناصر فكرة التسليم بأن شاريت رغب، بكامل ارادته، في دخول بن غوريون في حكومته من دون ان يكون هناك اي تعاون وثيق وصداقة بين الرجلين. ومن السهولة بمكان ان ندرك لماذا يحكم اي شخص من الخارج على العملية من خلال اثارها فيه، وليس من خلال مدى براعة افراد المخابرات، وهو المنهج ذاته الذي اتبعته اسرائيل للحكم على نتائج العملية. ومن جهة اخرى ايضا، فان الذي يحكم على العملية من الخارج قد يواجه صعوبة في معادلة نجاح او فشل العملية بمصير ما يعتبره عملاء لا فائدة من ورائهم. وبالنسبة الى غير الاسرائيليين فهي دليل يؤكد نظرية المؤامرة.

حلف بغداد

واذا ما سلمنا بان فضيحة لافون قد ادت الى دفع عبد الناصر للمقارنة بين واقع التعامل مع اسرائيل ومدى صعوبة تحقيق السلام، فان تأسيس حلف بغداد قد زعزع ايمانه بان الدول العربية ستولي مسألة علاقاتها بعضها مع بعض اولوية تفوق استقلال بعضها عن الاعتماد على الولايات المتحدة من اجل البقاء. وقد اعتقد عبد الناصر بأن دول الغرب ترفض او تقبل الانظمة العربية استنادا الى مدى نفع واذعان تلك الانظمة لدول الغرب، ولا تولي دول الغرب في خططها بشأن الشرق الاوسط الا القليل من الاهتمام، سواء كانت تلك الانظمة ديمقراطية ام لا، وسواء اهتمت برغبات شعوبها ام لم تهتم. وليس هناك من دليل على ذلك بالنسبة الى عبد الناصر اقوى من تاريخ حلف بغداد الذي يمثل حلف الدول الشرق اوسطية المناهض للشيوعية، والذي تم تشكيله في اوائل ايام الحرب الباردة. لم يستطع عبد الناصر جعل الزعماء العرب الموالين للغرب، او زعماء الغرب، يقبلون بالمنطق البسيط بأن العرب يجب ان ينشغلوا بالتهديد الاسرائيلي اكثر منهم بالتهديد الشيوعي المتخيل. لقد كان ذلك موقفا غريبا بالنسبة الى شخص يكره الشيوعية بالحدة التي كانت لدى عبد الناصر.

تصعّدت رغبة الغرب في استيعاب مصر في تحالف عسكري يهدف الى ابعاد الاتحاد السوفييتي والشيوعية عن الشرق الاوسط، وتحولت الى طلب رسمي اثناء اجتماع جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية والرئيس المصري محمد نجيب خلال شهر ايار (مايو) عام 1953. ولم يترتب على ذلك الاجتماع اي شيء ملزم باعتباره اجتماعا استكشافيا في اول زيارة لمسؤول رفيع المستوى الى مصر. لكن، وخلافا لموقف عبد الناصر المعارض فعليا للتحالف، فان الرئيس المصري المحافظ لم يعارض الفكرة. ومن ثم بدأت المحاولات الامريكية القوية لايجاد شركاء في الحلف المقترح بعد مرور سنة على ذلك الاجتماع، حيث كان عبد الناصر في ذلك الوقت يضع اسس السياسة الخارجية المصرية. وكان عبد الناصر معارضا فكريا وعاطفيا لاشكال التحالف كافة مع القوى الخارجية. وفي واقع الامر، فقد كانت معارضته للشيوعية في الشرق الاوسط ترتبط كثيرا بحقيقة انهم كانوا يتلقون تعليماتهم من سلطة خارجية ـ الاتحاد السوفييتي ـ اكثر من كونها معارضة ترتكز على منطلقات ايديولوجية. اضافة الى ذلك، اخفقت محاولات مصر لشراء اسلحة من الولايات المتحدة او فرنسا، وقد استمرت لما يقارب الثلاث سنوات. وفي عام 1954، وصلت الى عبد الناصر اخبار عن اتفاقية اسلحة سرية بين فرنسا واسرائيل، وهي الاتفاقية التي تم بموجبها توريد مقاتلات ميستير الفرنسية الى اسرائيل.

ابلغ مايلز كوبلاند، احد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية، وموظف ميداني مهمته تأمين الاتصال بالعملاء «الاحرار» مؤلف هذا الكتاب بأن عبد الناصر كان يائسا للغاية بشأن الاسلحة الامريكية، الى درجة انه اطلع العميل الرفيع لدى وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية بأن كل ما يريده هو ما يكفي لاجراء استعراض عسكري. وهناك بعض من الحقيقة في ذلك. فقد اراد عبد الناصر حفظ ماء الوجه لدى شعبه، موضحا لهم بأنه لم يخطئ في تقديراته بشأن الولايات المتحدة. ولكن كوبلاند صور عبد الناصر، وكأن شغله الشاغل كان مشاكل السلاح، عقب غارة غزة في شباط (فبراير) 1955. والغريب في الامر ان عبد الناصر حتى ذلك الوقت لم يجر اي اتصال بالبريطانيين لتأمين الاسلحة، خشية اتهامه بالتبعية الى المستعمر المصري السابق حتى بعد ان تهرب منه الامريكيون والفرنسيون. وكانت هناك جملة من المبررات لذلك السلوك الامريكي والفرنسي تجاه عبد الناصر. فقد ارادت الولايات المتحدة دخول مصر في التحالف المضاد للشيوعية، وكان ذلك بمثابة الثمن لقاء تزويدها بالاسلحة. وكان الفرنسيون، على الجانب الآخر، منزعجين من مساندة عبد الناصر وتدريبه للثوار الجزائريين، وقد بدأت المساعدات المصرية مباشرة عقب انفجار الثورة في الجزائر في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1954. وفي هذا الشأن، اخطأ عبد الناصر كثيرا في تقدير رد الفعل الفرنسي تجاه قراره.

ولم ينفذ اي من الفرنسيين او الامريكيين بنود الاعلان الثلاثي تجاه بيع الاسلحة في المنطقة، وذلك لان الولايات المتحدة كانت قد عقدت صفقة اسلحة مع العراق في عام 1954، لقاء قبول العراق للتحالف. وكان الفرنسيون يفاوضون في الوقت ذاته من اجل تمديد مجموعة الاتفاقيات التي عقدوها في هذا الشأن مع اسرائيل. ومقابل توقفها عن امداد اسرائيل بالاسلحة، طلبت فرنسا من عبد الناصر التوقف عن دعم الجزائريين. وقد اخطأ الفرنسيون في الحكم على عبد الناصر، بشأنهم في ذلك شأن الامريكيين والبريطانيين. فقد كانت معارضته لاي شيء لا يقبله شعبه معارضة مطلقة، وكان يرى ان ذلك هو ما يميزه عن الانظمة العربية الاخرى في منطقة الشرق الاوسط والانظمة السابقة له في مصر. وكان يعلم بمساندة شعبه للثوار الجزائريين، كما كان في حاجة الى المجموعات الصديقة للجزائريين.

وفي اوائل عام 1955 اخبر عبد الناصر الامريكيين بأن الحلف العسكري الوحيد الذي يعتبره شاملا هو حلف عربي. واضاف ان لدى الدول العربية تنسيقا بشأن الدفاع المشترك عبر جامعة الدول العربية. ومرة اخرى، كان صوت الشعب هو الذي حدد سياسته الدولية. وهذا الصوت فاعل في الحالتين، فاذا كان امر التحالف ضد الشيوعية غير ذي معنى بالنسبة اليه، نظرا الى بعد التهديد الشيوعي، فانه لم يكن له اي معنى بالنسبة الى غالبية المصريين. وليس معروفا اذا كان عبد الناصر في ذلك يفكر في تبني رغبات غالبية العرب المعادين للأمريكيين او الغالبية المصرية. لكن بعد علمه بان رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد كان يتفاوض مع الغرب للانضمام الى الحلف نفسه الذي رفضه هو، ارسل وزير الارشاد القومي وعضو مجلس قيادة الثورة صلاح سالم للتحدث الى المسؤول الحكومي الاول والطلب اليه الخروج من الحلف، ولكن صلاح سالم فشل في مهمته، ولم تكن لديه القدرة الكافية التي تؤهله لمواجهة نوري السعيد المراوغ.

ياسر عرفات وجمال عبد الناصر وفي الوسط الملك فيصل بن عبد العزيز

* كاتب وصحافي فلسطيني يقيم في فرنسا